

صيد الخاطر

200 - - فصل : تذكر الموت .

حضرنا يوما جنازة شاب مات أحسن ما كانت الدنيا له فرأيت من ذم الناس للدنيا و عيب من سكن إليها و التقبيح للغافلين عن الاستعداد لهذا المصراع أمرا كبيرا من الحاضرين .
فقلت : نعم ما قلتم و لكن اسمعوا مني ما لم تسمعوه .
أعجب الأشياء أن العاقل إذا علم قرب هذا المصراع منه أوجب عليه عقله البدار بالعمل و القلق من الخوف .

وقد اشتد ذلك بأقوام فهاموا في البراري و طووا الأيام بالمجاعة و داموا على سهر الليل و لازموا المقابر فهلكوا سريعا .

و لعمري إن ما خافوه يستحق أكثر من هذا الفعل .

و لكن نرى العقل الذي أوجب هذا القلق قد أمر بما يوجب السكون فقال : إنما خلق هذا البدن ليحمل النفس كما تحمل الناقة الراكب .

و لا بد من التلطف بالناقة ليحصل المقصود من السير و لا يحسن في العقل دوام السهر و طول القلق لأنه يؤثر في البدن فيفوت أكثر المقصود .

كيف و قد خلق بدن الآدمي خلقا لطيفا فإذا هجر الدسم نشف الدماغ و إذا دام على السهر قوى اليبس و إذا لازم الحزن مرض القلب .

فلا بد من التلطف بالبدن بتناول ما يصلحه و بالقلب بما يدفع الحزن المؤذي له .
و إلا فمتى دام المؤذي عجل التلف .

ثم يأتي الشرع بما قد قاله العقل فيقول : [إن لنفسك عليك حقا و إن لزوجك عليك حقا فصم و أفطر و قم و نم] .

و يقول : [كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت] .

و يحث على النكاح و دوام القلق و اليبس يترك الزوجة كالأرملة و الولد كاليتيم .
و لا وجه للتشاغل بالعلم مع هذا القلق .

و من أراد مصداق ما قلته فالي تأمل حالة الرسول صلى الله عليه و سلم فإنه كان يعدل ما عنده من الخوف فيمازح و يسابق عائشة و يكثر من التزوج و كان يتلطف ببدنه فيختار الماء البائت و يحب الحلوى و اللحم .

و لولا مساكنة نوع غفلة لما صنف العلماء و لا حفظ العلم و لا كتب الحديث .

لأن من بقول : ربما مت اليوم كيف يكتب و كيف يسمع و يصف .

فلا يهولنكم ما ترون من غفلة الناس عن الموت و عدم ذكره حق ذكره فإنها نعمة من الله سبحانه بها تقوم الدنيا و يصلح الدين .
و إنما تدم قوة الغفلة الموجبة للتفرط و الإهمال للمحاسبة للنفس وتضييع الزمان في غير التزود وربما قويت فحملت على المعاصي .
فأما إذا كانت بقدر كانت كالمح في الطعام لا بد منه فإن كثر صار الطعام زعافا فالغفلة تمدح إذا كانت بقدر كما بينا و متى زادت وقع الذم .
فافهم ما قلته .
و لا تقل فلان شديد اليقظة ما ينام الليل و فلان غافل ينام أكثر الليل فإن غفلة توجب مصلحة البدن و القلب لا تدم و السلام